

مساهمة الأدبية للشيخ السيد أبي الحسن علي الندوي في فن السيرة الذاتية

* د-حافظ شفيق الرحمن

** حافظ غلام مجتبی

Abstract

Maulania Sayyid Abul Hassan Ali Nadwi had an outstanding position, not only in india but also in the Islamic world particularly, in the Arab world. Maulana Abul Hassan Ali Nadwi was a great socio-religious reformer of the 20th century. His long intellectual and political career, which had influenced the entire Muslim world, deserves special consideration. It is therefore, worthwhile to be acquainted with his extensive work on vast range of subject, many of which were reliable diagnosis of the multifarious problems the Ummah was facing and is still facing. His writings which are almost 50 in number revive the faith in the hearts of the millions of the Muslims. Several factors distinguished Maulana Sayyid Abul Hasan Ali Nadwi from his contemporaries besides his educational attainments. In this research article an attempt has been mad to highlight his prominent contribution in art of Autobiography in Arabic literature and Islamic History.

Key Words: life of Nadwi, Art of Autobiography, Educational attainments

الحمد لله رب العالمين الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد!

فإن السيرة الذاتية هي التي يتحدث فيها الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث الفرح والترح، تعظم وتضؤل تبعاً لأهميتها، وقد تسجل فيها الوقائع والأحداث يوماً فيوماً أو بصورة متقطعة بعد أن تجمع عناصرها من مصادر متعددة. و تعرف السيرة الذاتية كما يلي: "كتابة الشخص تاريخه وقصة حياته بقلمه" وقد ورد في معجم مصطلحات الأدب: "أن السيرة الذاتية سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية".

أما فن السيرة في التعريف الأدبي فهو: "نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي، ويراد به مسيرة حياة إنسان ورسم صورة دقيقة لشخصيته".^(١) "والسيرة الذاتية هي نوع أدبي يعرف بحياة علم أو مجموعة من الأعلام، أو هي السرد المتابع

* الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية الجامعة الإسلامية بمأولبور

** الباحث بمرحلة الدكتوراة بقسم اللغة العربية الجامعة الإسلامية بمأولبور-

١. جبور: عبدالنور، المعجم الأدبي، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص: ١٤٣.

لدورة حياة شخص وذكر وقائع التي جرت له أثناء مراحل هذه الحياة، وليس تعريف السير اصطلاحيا قادرا على الإلمام بكل تفصيلاتها أو صورها المختلفة" (٢)

إن السيرة نمطا كتابيا من أنماط النشاط الإنساني الإبداعي. "ونوع أدبي قديم وهي أولا جزء من علم تدوين التواريخ ومن الناحية التسلسل الزمني" وربما كان أقدم شكل للسيرة الذاتية التي تتقدم على كل إشكال السيرة أهمية وخطورة". تلك الكلمات التي كان يناقشها القدماء.

وقيل في تعريف السيرة: "الترجمة الذاتية الفنية التي يغوص فيها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح وفي الأسلوب الأدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا عن تاريخه الشخصي". (٣)

ومن تعاريف أدب السيرة هي علم وفن أو هما معا، السيرة علم تاريخي ومعرفي وأدبي نوعا وشكلا، هناك غالبية الطابع العلمي التاريخي في سير، ووضوح الجانب الأدبي في سيرة أخرى حسب الإطار، فبينما يغلب على الجانب الأول الحرص على الدقة التاريخية، في تصوير الحقائق والوقائع بغلب على الجانب الثاني: الطلاوة الأسلوبية، وبعض الخيال في الصور، مع عزوف عن الحرفية التقريرية الجامدة.

ومن الباحثي العرب الذين عرفوا السيرة الذاتية تعريفا قريبا من هذا المفهوم محمد عبد الغني إذ يقول: "التراجم الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه فيسجل حوادثه فيها من أحداث وأخبار ويسرد فيها أعماله وأثاره ويذكر فيها الأيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتظل تبعا لأهمية وهي ومطمئنة الاعتراف والمغلاة غالبا وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإعلاء قيمتها ولكن إذا اعتدت كانت أصدق ما يكتب عزوجل وأكثره انطلاقا على حياته لأنها ليست مجالا تحت يمين وافتراض ولكنها مجال تحقيق وتثبت بها يصبح في التراجم الذاتية مضرب مثل: قطعت جهبيرة قول كل خطيب" (٤)

فإن الذي لاشك فيه أن المرء يجد متعة كبرى في الحديث عن نفسه أو رواية تاريخ حياته، وقد يكون ثمة فرق بين حياة على النحو ما يعيشها ولكن هذا الاختلاف ليس إلا صورة من الصور الاختلاف القائم بين القول والسرد أو الحديث المروي من جهة والخبرة المعاشة أو التجربة الحية من جهة أخرى. وهذا يعني أن السيرة الذاتية هي قصة حياة إنسان يسردها بنفسه ولكن لا يعني أن كل حديث يسرده الإنسان عن نفسه هو سيرة ذاتية: ليست الترجمة الذاتية حديثا عن النفس، ولا هي تدوين المفخر والمآثر. (٥)

إن كل سيرة ذاتية في حد ذاتها هي تجربة ذاتية لكل شخص من الأشخاص فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج وأصبحت في نفس كاتبها نوعا من القلق الفني وأصبحت تلح عليه للإفضاء بها للناس دون أي حرج، فإنه لا بد أن يكتب

٢. إبراهيم السعافين وآخرون، أساليب التعبير الأدبي، عمان: دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص: ١٩١، ١٩٢.

٣. يحيى: إبراهيم، عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤م، ص: ١٠.

٤. حسن: محمد عبد الغني، التراجم والسير، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص: ٢٣.

٥. حسن: محمد عبد الغني، التراجم والسير، ص: ٢٣.

سيرته الذاتية. وإن الإنسان الذي يعجز عن أن يرى مرتبته في الحياة بكل الوضوح وليست له نظرة عميقة ونظرة خاصة في تجربة حياته لايناسب له أن يكتب سيرته.

ومن الذين رأوا أن فن السيرة الذاتية وليدة الحضارة المصرية القديمة ول وإيريل ديورانت: "الذين يروا أن برديات من الأدب المصري القديم، يرجع تاريخها إلى عام ۲۰۰۰ ق.م، يحتوي كل منها على قطع من السيرة الذاتية، ومنها قصة تحطم سفينة في عرض البحر، قطعة من تجربة ذاتية تفيض حياة وشعورا. ويرى ديورانت: " أن السومريين ثم البابليين اعتنوا بالحديث عن أنفسهم، ولكن في سياق قصصي مثل المصريين.

إن السيرة فن أدبي يجمع بين القصة والتاريخ ويتناول شخصية من الشخصيات البارزة والكشف عن عناصر العظمة فيها، وهي عملية تحليلية لعناصر الشخصية المترجم لها، ومن خلال هذا التحليل، تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية.

ويشير بعض الكتّاب إلى أن السيرة الذاتية تبلغ أوج الحميمية والصدق إن هي أتت على ذكر التفاصيل الشخصية والخاصة والتجارب اليومية لكاتبها، وما مر به في طفولته وشبابه، وهي تستمد قوتها من كونها شهادة ورصدًا لحياة هذا الإنسان بغض النظر عن أهميته ومركزه ومكانته، فكل حياة صالحة لتروي إن كانت صادقة ومعبراً عنها بطريقة فنية ممتعة وشائقة.^(٦) إن فن السيرة الذاتية قديم في الأدب العربي وليس من الفنون المستحدثة كما يظن البعض في عصرنا، فكتب بعض القدماء من أعلام الفكر والأدب والعلم عن حياتهم، ومن أهم كتب السيرة الذاتية العربية القديمة "الاعتبار" لأسامة بن منقذ، و "المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي.

في العصر الحديث، ظهرت السيرة الذاتية في الأدب العربي متأثرة بصور متباينة بكتابة السيرة الذاتية في الغرب (وبعضها يدخل في مجال الاعترافات، مثل: اعترافات "جان جاك روسو"، ومن قبله القديس "أوغسطين"، أو المذكرات مثل مذكرات "مدام موتفيل"، ومذكرات الكاردينال "ريتزو" كلاهما في القرن السابع عشر الميلادي)، فأرنا سيراً ذاتية للعديد من الأدباء والمفكرين والمشاهير، منهم: علي مبارك ومحمد كرد علي وعباس محمود العقاد وطه حسين والمازني وتوفيق الحكيم وإلياس فرحات وأحمد أمين وميخائيل نعيمة ومصطفى الديواني وشوقي ضيف ومحمد عبدالمنعم الخفاجي.

فكتب الأدباء المعاصرين بالأسلوب الحديث والتحليل النفسي الممتع ومنها: "الأيام" للدكتور طه حسين، و "حياتي" للأستاذ أحمد أمين، و "أنا" لعباس محمود العقاد و "لمحات من حياتي" للدكتور نجيب الكيلاني و "في مسيرة الحياة" لسيد أبي الحسن علي الندوي.

حينما ننظر إلى مساهمات لسيد أبي الحسن علي الندوي العلمية والأدبية في هذا الفن نجد أنه اهتم اهتماما كبيرا بكل فنون الأدب العربي وأجناسه، وتناول كلها بالبحث والدراسة، وساهم مساهمة فعالة في أغلب فنونه وأجناسه. وأنه يرى من الخطأ والجور والظلم على اللغة العربية وآدابها أن يلتزم الكاتب أو الأديب أو الطالب بنوع معين من أنواع الأدب، أو يجنس واحد من أجناسه، أو يفن واحد من فنونه الأدبية. كما يظن من التقصير والعييب أن يجنس الأديب

٦. منيف: عبدالرحمن، رحلة ضوء، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ۲۰۰۳م، ص: ۸۷.

أو الكاتب أو المتعلم نفسه على نوع معين من الأدب أو فن معين من فنونه، فيكتب فيه ويمارس عليه، ويزعمه الطريقة المثلى والنموذج الوحيد لفن الكتابة. وإنه نقد بشدة بعض الهيئات التعليمية والمدارس العربية الإسلامية لنظرتها نحو المقامات الأدبية وأسلوبها حيث جعلوها نماذج للغة العربية وآدابها، ينبغي لدارس اللغة العربية أن يتبعها، وأن يلتزم بها، ولا يخرج عن دائرتها.

فمن الميادين التي كتب الشيخ الندوي وتعمق فيها أدب السيرة أي السيرة الذاتية والغيرية. وهذا اللون من الأدب إبداع يقدم صاحبه تجربته المتميزة للآخرين ليقفوا على تعامل صاحبها مع الأحداث، و يروا الصعوبات التي مر بها، والنتائج التي حققها. فهي إبداع هادف وممتع في آن واحد، وينقل مع تجربة صاحبها تصورات وفكره. وألف الشيخ الندوي مؤلفات عديدة في السير والتراجم بالإضافة إلى السيرة النبوية الشريفة. ويعتقد الشيخ الندوي أن كتابة السيرة ليست أمرا سهلاً وهيناً، كما يظنه البعض.

وكذلك ألف الشيخ الندوي كتباً أخرى في السير وتراجم الرجال، منها: كتاب "رجال الفكر والدعوة" في أربعة أجزاء، تناول الكتاب موضوع الإصلاح والتجديد، والتعريف ب كبار الرجال في مجال الدعوة والعزيمة والجهاد في تاريخ الإسلام. يقول الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي في تقديمه لهذا الكتاب: "وهذا الكتاب الذي تقدمه اليوم لقرء العربية صورة واضحة لأفكار الأستاذ الندوي، وميوله الإصلاحية، لفهمه العميق للتاريخ الإسلامي، ولروح الإسلام الصافية المشرفة، وما علق بها- في الصور الأخيرة - من غبار، وما أصابها من انحراف. وبذلك يسد هذا الكتاب ثغرة في دراسة التاريخ الإسلامي، كنا وما نزال نشعر بالحاجة إليها".

وقد كتب أبو الحسن علي الحسيني الندوي سيرته الذاتية في كتاب من ثلاثة أجزاء تحت عنوان "في مسيرة الحياة" باللغة الأردية وترجمها إلى العربية، وراجعها الندوي بنفسه، مع بعض التعديلات التي أدخلها على النص العربي بالحذف والإضافة، وقد نشرت الأجزاء الثلاثة بمعرفة دار القلم بدمشق، نشر الجزء الأول عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، والجزء الثاني عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، والجزء الثالث عام ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. وهناك تقديم مساهمته و منهجه الذي اختاره الشيخ الندوي في ترويح هذا الفن "فن السيرة الذاتية".

دراسة تحليلية " في مسيرة الحياة " لسيد أبي الحسن علي الندوي

تقديم الكتاب بقلم أديب العربية الكبير الشيخ علي الطنطاوي:

ويقول: " قد شرفني أن أكتب مقدمة الكتاب "في مسيرة الحياة" لسيد أبي الحسن علي الندوي، أنا لم أكن يوماً في موضع القيادة في الدعوة الإسلامية، ولكنني أمشي معها من يوم كنت أدرس في مصر سنة ١٣٤٧هـ فشهدت بداية الدعوة النظامية بإنشاء "جمعية الشبان المسلمين" وعرفت رجالاً من أعيان الدعوة إلى الله، ومن أكابره كما عرفت أبا الحسن، وماذا أقول وقد سدد عليّ أخي أبو الحسن مسالك القول، فلم يدع لي مسافة أتملة أو سعتها لأدخل منها، فأكتب عنها، لقد كتب عن أسرته، أهل أبيه وأهل أمه، وإذا هو المعتم المخول، كما كانت تقول العرب، وإذا هو عالم من نسل علماء، ولقد عرفت من مطالعتي أسرار توارث أبناؤها العلم، فكانوا وكان نساؤهم من العلماء، كأسرة القدامة الذين منهم مؤلف "المغني" أعظم كتب

الفقه الإسلامي، و ابن أخيه صاحب "الشرح الكبير"، والحافظ صاحب "المختارة" التي هي أصح كتب الزوائد علي الصحيحين، ولقد أولعت زمنا بتتبع تاريخ هذه الأسرة.

ولو عدت من هذه الأسر أسرة أبي الحسن الندوي لما أبعدت، فأبوه عالم طبيب مؤلف، وأخوه لأبيه عالم طبيب، و أخته مؤلفة ولها ترجمة "رياض الصالحين" وأخته الأخرى عالمة وهي أم العلماء، كلهم اسمه محمد، عرفت منهم محمد الرابع الذي كان شابا يوم زرت الهند، وكان جزاه الله خيرا يمشي معي يدلني ويأخذ بيدي ويترجم لي، وعرفت أخاه محمد الخامس، الذي كان في إذاعة دهلي، وقد دعيت إليها فسلجوا لي أربعة أحاديث، واستقبلوني بالترحيب والإكرام، وودعوني بالتحية والسلام، ولكنهم لم يذيعوا شيئا منها. فإذا اجتمع العلم والأدب مع الحسب والنسب، فتلك الغاية التي لا غاية بعدها. أما بالنسبة إلى كتاب الشيخ أبي الحسن يقول الطنطاوي عنها، "كتاب الأستاذ أبي الحسن ليس سرداً لأحداث حياته، ولكنه كتاب تاريخ، وكتاب أدب فيه وصف للأمكنة كأنك تراها، كتاب علم فيه ذكر العلماء ومجالس العلم، وسجل اجتماعي فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند، وكان مما قرأت عن المكان الذي نشأ فيه أنه بنى على طراز الكعبة بطولها وعرضها، إلا أنه نقص من ارتفاعها عدة أنامل تأدبا معها واحتراما لها، و سيقت قواعده بماء زمزم".

تقديم الكتاب بقلم المؤلف

سبب حرصه على الكتابة في مسيرة الحياة

كتب المؤلف الكتب والرسائل في شتى الموضوعات: العقائد، العبادات، تفسير الآيات القرآنية والسيرة النبوية المعطرة، والتاريخ والسير والتراجم، وكتب السيرة الذاتية أيضاً، أما كتابه الشهير في موضوع السيرة الذاتية وهي "في مسيرة الحياة". قال: "هناك أسباب عديدة، منها تلك الكلمة المأثورة الحكيمية: "ما هلك امرؤ عرف قدره" التي كنت في ضوئها استصغر نفسي مجال التنويه بها أتضاءل أمام الذين كتب في سيرتهم وتراجمهم، أو تناولوا تقييد المذكرات لحياتهم، فلم أكن يوم سياسيا بارزاً، ولا قائداً محنكاً، ولا صاحب شهرة وجاه عريض، أو تربية وإرشاد، ولا نابغة من نوابع العلم والفن، لم يكن شيء من ذلك حتى يسوغ لي التأليف عن نفسي".

ثم يقول الندوي: "أشعر في الكتابة حول هذا الموضوع، وظهر أمامي جانبان مهمان من جوانب الخير والنفعة فيه: "إنه باستعادة ذكريات حياتي وأحداثها، والتأمل في صنع الله تعالى بعبده الضعيف أتذكر قول الله تعالى، ﴿سُنِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٧) والسبب الآخر أن هناك كثيراً من المواضيع والأحداث والوقائع والمؤسسات والحركات، والشخصيات والجماعات، وتصوير البيئة والأعراف، ونظام التربية السائد في البيوتات، لا يتيسر الحديث عنها إلا في تضاعيف قصة حياتي و مذكرات رحلة عمري، فإننا لو ألقينا الضوء على كل واحد منها بصورة منفردة مستقلة لاحتاج ذلك إلى مجلدات مفردة.

وحينما يتحدث الندوي عن مجتمع عصره ومدنيته، ونظام التربية فيه وحياة مصر كلها في عهده وأيضاً البيئة الدينية الهندية الذي عاش فيها يقول: "فقد كتبت في هذا النصف من القرن الحالي عشرات من الكتب في قصص الحياة الشخصية

في أوروبا وفي الهند أيضاً، وصادفني ثلاثة أمثلة لأفراد الطبقة العلمية الدينية ومشايخي وأساتذتي المؤقرين، أحدهم شيخ الإسلام السيد حسين أحمد المدني رحم الله تعالى الذي ألف كتابه "نقش حياة" وكان قد بدأه بقصة حياته، لكن أنهى هذه القصة للأسف على صفحة ۱۳۰، وبدأ يكتب فيما بعد قصة جهاد التحرير الذي كان لشيخه ومرشده شيخ الهند محمود الحسن الديوبندي فيه القدر المعلي والدور القيادي العظيم، وانتهى المجلد الثاني من الكتاب في تفصيل هذه الحكاية وبيان أسبابها وعواملها وخلفياتها."

كان المثال الثاني لبركة العصر وريحانة الهند شيخنا الحديث محمد زكريا الكاندهلوي صاحب "أوجز المسالك إلى مؤطا الإمام مالك"، وكان المثال الثالث للأستاذ الأديب الكبير الشيخ عبدالمجيد الدرا آبادي صاحب "تفسير القرآن" باللغة الأردية والإنكليزية، الذي ألف في حياته كتاباً في أسلوبه الفريد الخاص، فهو يثير العظة والاعتبار ويعلم الأدب والسلوك، وهو تسجيل ناطق مؤثر لعهد طفولته وشبابه وكهولته.

أما نسب سيد أبي الحسن علي الندوي فهو ينتهي إلى محمد ذي النفس الزكية، بن عبدالله المحض، بن الحسن المثنى، بن الامام الحسن السبط الأكبر، بن أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، لذلك اشتهرت هذه الأسرة بالحسنية-

”وأول من قدم إلى الهند من أجداد هذه الأسرة هو الأمير السيد قطب الدين محمد المدني، قدم إلى الهند عن طريق بغداد وغزنة في فتنة المغول في أوائل القرن السابع الهجري مع جماعة كبيرة من أصحابه، وتولى مشيخة الاسلام في دهلي مدة من الزمان، ثم خرج مجاهداً في سبيل الله.“

ثم يقول الندوي عن أسرته: ”وأسرتنا في ذلك كسائر الأسر، مرت بأدوار الرقي والازدهار والسقوط والانحطاط، والأخذ بالرخص والعزائم، ولم يزل هناك تفاوت واختلاف كبير في أجيالها السابقة وأعقابها اللاحقة، وبين أفراد الأسرة في عهد واحد ومكان واحد، ومن المقطوع به أن تكون في مختلف أدوارها قد عراها الضعف في الخلق والدين، وأن لا تكون مصونة كلياً من تأثيرات البيئة والزمن -

هذه الخصائص والمميزات والمميزات المشتركة بين أفراد الأسرة التي حاولت تحديدها بطريقة الاستقراء، ولا يمكن الادعاء في تحديدها وتعيينها بالحيد التام، والتحرر المطلق مائة في المائة من الحب الكامن من اللاوعي، فكثيراً ما تخلق الرغبة والرضا صوراً و شكلاً لا وجود لها، و رضي الله عن الامام الشافعي اذ يقول :

و عين الرضا عن كل عيب كليله
كما أن عين السخط تبدي المساويا^٨

وكذلك صرح الندوي عن عسر وضيق أسرته قبل ولادته ويقول :

فلما جاءت الوالدة إلى هذا البيت الجديد و جدته صورة صادقة، لما كانت تسمع عنه، عسر وضيق، بسط حيناً و قبض أحياناً آخر، شبع تارة و مسغبة أخرى، و في البيت عدة أفراد، ودخل الجد قليل،هدأ و كانت الجدة لأمي دائمة التلمس - لشدة شفقتها و عطفها- كيف تعيش بنتها في بيتها الجديد؟ هل هي في راحة أو ضيق و مشقة، وكانت تبعث

^٨ ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار ۱/۳، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ۱۴۱۸ هـ-

بالخادمة أحيانا لتري هل يطبخ في البيت شيئا، وقد حكى لنا الوالدة مرارا أنها كانت اذا رأت أحدا قادمًا من بيتها تضع القدر علي الموقد، و تشعل النار، حتي يظن أن الطعام يطبخ، مع أنه ليس في القدر الماء، و كانت الجدة أحيانا تنظف بفراسيتها إلى الحاجة، فتبعث بالمائدة تأتي بها الخادمة -

ويجب هنا أن نشير إلى حقيقة، و هي أن أسرتنا كانت تنقسم في الأصل إلى فرعين، كان أحدهما نازلا في موطن آبائه القديم ”درة الشيخ علم الله“ وكان الفرع الثاني انتقل بعد شهادة الامام أحمد بن عرفان الشهيد علي دعوة من النواب وزير الدولة إلى طونك، وقد كان فيه مع أفراد الأسرة الذين كانت لهم صلة قريبة بالإمام الشهيد والبقية الباقية من جماعة المجاهدين والمتصلين بهم، الذين لجأوا إلى طونك قادمين من ساحة الجهاد أو السند أو بعض المناطق الشرقية، و سمي الحي الذي نزلوا فيه لأجل ذلك ب”القافلة“

يذكر الندوي وفاة والده ويقول ”كان اليوم الخامس عشر من جمادي الآخرة عام ۱۳۴۱هـ وكان يوم الجمعة الموافق ۲ فبراير عام ۱۹۲۳م، وهو اليوم التاريخي الفاصل الذي انقلبت فيه صفحة هذه الفترة الهنيئة من العمر بسرعة، بل انقلبت صفحة تاريخ هذه الأسرة الصغيرة الذهبية، وكان البيت رأساً علي عقب، فقد فارق الوالد بعد مرض دام بضع ساعات هذه الحياة العارضة، فلما انقطع صورته عرفت شقيقتاي وخافتا أن يكون قد حدث بالوالد حدث، وكان أستاذي الشيخ محمود علي قد رجع بعد اجازة يوم الجمعة التي كان يقضيها في بيته في المدينة، وجاء أحد الأطباء وأحد أصدقاء الوالد أيضاً، فتأكد من أنه فارق هذه الدنيا الفانية“ -

يحدث الندوي عن رحلته إلى لاهور و يكتب:

”عندما سمعت عمتي زوجة السيد طلحة“ بلاهور بخبر نجاحي بامتياز كتبت إلى والدي تطلب رحلتي إلى لاهور في يوم من أيام يونيو عام ۱۹۲۹م مع احد أقبائي الكبار الأستاذ السيد ابراهيم الندوي الذي كان يعمل في دار الترجمة في حيدر اباد، وقد كانت لاهور حينئذ أكبر مركز ثقافي و أدبي وصحافي في شبه القارة الهندية، فكانت تصدر منها عشرات من الصحف الأردية وكانت صحيفة ”زميندار“ لها الكلمة النافذة والصوت المسموع كما كانت الكلمة النافذة والصوت المسموع كما كانت تصدر منها مجلات أدبية موقرة، وأهم من ذلك كله أنها كانت بلد الشاعر الإسلامي الكبير الدكتور محمد إقبال -

وكذلك يتحدث أبو الحسن عن أساليب أخيه في التعليم والتربية و كتابته للمقالات فيقول : ”لقد رزق أخي خاصة موهوبة للتربية“ والتعليم، فقد كان يجتهد فيها ويختار طرقا و أساليب جديدة، وكان بوده أن أتعرف علي حقيقة دعوة الامام أحمد بن عرفان الشهيد وأزداد شغفا به و بسيرته و دعوته، إذ كان أجدادي متصلين به اتصالا روحيا و عائليا وفكريا، وكان لفرع أجدادنا علاقة خاصة به، وقد صدر في تلك الأيام مقال للاستاذ محي الدين قصوري في مجلة ”التوحيد“ التي كانت تصدر برئاسة تحرير فضيلة الشيخ داود الغزنوي ”بأمرتسر“ وكان عنوان المقال مجاهد الهند الأعظم و قد عرضت فيه دعوة الامام الشهيد و سيرته بأسلوب عصري و طريقة جديدة لأول مرة، وكان عمنا الحاج السيد خليل الدين مشتركاً في المجلة، فأشار علي أخي بنقل المقال العربية، و أوصاني بأن أقرأ قبل عملية الترجمة بعض كتب السير والتراجم الموثوق بها والتي ألف في أسلوب خفيف سلس، و أقيد التعبيرات الخاصة وأساليب الأداء التي يحتاج إليها في كتابة التاريخ والتراجم،

فراجعت لهذا الغرض الكامل لابن الأثير، وقيدت ما وجدت من ألفاظ و تعبيرات أعجبتني أو شعرت أي ربما أحتاج إليها في التعبير والتحرير، و تيسرت لي الترجمة بعد ذلك-

الزيارة الأخيرة للدكتور محمد إقبال:

إلى عام ۱۹۳۴م، ۱۹۳۵م لم يكن لي كبير شغف و عناية بشعر الدكتور محمد إقبال، و ما كنت أعرف من دواوينه الشعرية الا ديوان ”بانك درا“ الذي كان باكورة دواوينه الشعرية، ولم يكن فيه ذلك السمو الفكري و التحليق المعنوي الذي اتسمت به مجاميع شعره المتأخرة، وكما أسلفت أنني كنت ترجمت قصيدته المعروفة بالقمر، وأنه كان نظر فيها عند سفري الأول إلى لاهور في مايو عام ۱۹۲۹م-

كان من حسن المصادفة أن الأستاذ مسعود الندوي كان معجباً به كذلك غاية الاعجاب، وأسير أدبه و شعره، فكنا نتناشد شعر إقبال، و نتمتع به و نندوقه، وكلما رأينا تنويها بشعر طاغور و اطراء له في مجلة عربية أو ترجمة لبعض شعره فيها وقد كان ذلك في الأوساط الأدبية في الشرق العربي، حتي ان أديب مصر الشاب الناهض الناقد سيد قطب أيضاً كان معجبا به و معترفاً بفضلله، وكان يري أن شعره يمثل روحانية الشرق في الشعر والتعبير عن المعاني والحقائق غير المادية والحسية أروع تمثيل وأجمله غاظنا ذلك وأثار فينا سخطا وامتعضا، و تحمسا لتعريف شعر إقبال في العالم العربي-

إعداد سلسلة الكتابات الدعوية في اللغة العربية

بدء كتابة المقالات والرسائل العربية :

لقد انعطف عنان قلبي بعد كتابة مقال ”دعوتان متنافستان“ إلى كتابة المقالات والرسائل باللغة العربية ومخاطبة العرب، ولم يكن أمامي إذ ذاك مثال أو نموذج لمثل هذه المقالات التي تجمع بين : قوة الدعوة، والعاطفة الدينية، والقلم القوي البليغ، واللغة العذبة السلسلة إنما كانت لدي إمامقالات أدبية خالصة نجد أمثلتها في كتابات السيد مصطفى لطفی المنفلوطي و مصطفى صادق الرافعي والدكتور طه حسين، أو مقالات علمية تحليلية ناقدة، ترى أمثلتها في كتابات الدكتور أحمد أمين، وعباس محمود العقاد والعلامة كرد علي، ولم يكن حينئذ قد طلع على الأفق العربي نجم كسيد قطب، ومصطفى السباعي، وعلي الطنطاوي، ولا كانت تصل إلينا كتب الاخوان ورسائلهم، بل لعلي كنت أجهل اسم الشيخ حسن البنا أيضاً، لذلك لم يكن لي الا أن ابتكر أسلوباً جديداً و أنهج نمحاً جديداً-

فلما بدأت هذا العمل الكتابي الدعوي، ووقفت بعد ذلك عام ۱۹۵۱م للسفر إلى الشرق الأوسط، قدرت فراسة مرئي وأخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي، وبعد نظره و بصيرته الدينية، واعترفت بفضلله الكبير علي، اذ أنه اختار لي هذا الطريق، و أنه أتاح لي بمعزل عن مناهج التعليم السائدة فرصة الحصول علي سعادة الخطاب للعالم العربي، واثارة شعورهم ووجدانهم، و ايقاظ عواطفهم الخاملة، و مخاطبتهم بأما ”بضاعتكم ردت إليكم“ عن طريق هذه اللغة والأدب، والكتابة والتحرير، والانشاء والخطابة-

منهج سيد أبي الحسن علي الندوي في السيرة الذاتية في ضوء "في مسيرة الحياة"

لا ريب أن الندوي يدرك ما وراء فن السيرة الذاتية وكتابتها من عرض النموذج القدوة الذي يجذب القراء ويؤثر فيهم ويحركهم نحو المثل الأعلى - والله المثل الأعلى - فهناك دروس وتجارب ووقائع قد يكون لها نظير في المجتمع والبيئة، وقد يتوقع حدوثها وهو ما يعنى التجربة الإنسانية ويثريها ويهيئها للتفاعل الإيجابي وإفادة المجتمع الإسلامي ومن يعيشون فيه. ولعل هذا ما جعل الشيخ علي الطنطاوي يرى في سيرة الندوي كتاب تاريخ وكتاب أدب وكتاب علم وسجلاً اجتماعياً بما فيه من وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند^(٩).

ثم إن القارئ يعلم عن الكاتب من سيرته ما قد يغيب عن المترجم له من المؤلفين والباحثين، وخاصة ما يتعلق بالأمور الدقيقة والمفارقات التي تحدث في حياة الكاتب ولا تجد طريقها للنشر، ومنها على سبيل المثال قصة مهمة عن حبه للكتب ذات دلالة في طفولته، حيث كان في السادسة من عمره وتوافر معه قرشان فغدا إلى سوق "أمين أباد"، ودخل إحدى الصيدليات ودفع النقود للصيدلي وطلب كتاباً، وتفظن الرجل أن الطفل ساذج بريء من أسرة كريمة، فأعطاه فهرس الأدوية بالأردية وردّ معه النقود، فعاد فرحاً مسروراً، وزين مكتبته الصغيرة بهذا الكتاب مع كتب ورسائل كان والده يستغني عنها ويتركها^(١٠)، ومنها أيضاً أنه كان يحب الورود أيضاً مثلما يحب الكتب، ومنها كذلك ما يتعلق بحركة الخلافة وتأثيرها على الهند ومثقفها، وكانت لكنهنّ تستقبل الزعماء: الشيخ عبدالباري الفرنجي محلي، وغاندي، ومحمد علي وشوكت علي، وأناشيد الخلافة يُعنى بها في كل مناسبة، وأن الإنجليز قد انتهى حكمهم بعد إعلان المقاطعة لبضائع الإنجليز، يلي ذلك حديث مستفيض عن إلغاء الخلافة على يد اللورد "كرزن"، وإعلان استقلال تركيا العلمانية.^(١١)

موضوعية:

موضوعية تناول خطوة أساسية في منهج الندوي، والموضوعية تعني الصدق والالتزام بالحقائق، وذكر ما يعرفه دون زيادة أو نقصان، فالرجل ينتسب إلى أسرة عريقة ذات أرومة عربية، ويضع الشيخ علي الطنطاوي أسرة أبي الحسن ضمن العرب الأقحاح الذين عرفوا بألقاب فارسية وأعجمية مثل: التبريزي، الشيرازي، القزويني، الجرجاني، الهمداني، الرازي، الطبري، الشهرستاني، النيسابوري، الإسفراييني، الأصفهاني.^(١٢) ومع ذلك فإن الندوي يشير إلى أنه نبغ في أسرة الأعلام في مختلف العلوم والآداب، ولكنه لا يجعل ذلك سبيلاً إلى إضفاء نوع من الحصانة على أسرته، فيذكر أنه لا تُستثنى أسرة من الأسر البشرية من قانون الإزدهار والسقوط، ويستشهد على ذلك بآيات القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(١٣)، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِهِ﴾^(١٤)، وفي السياق الموضوعي

٩. في مسيرة الحياة، ٩/١.

١٠. المصدر السابق، ٥٧/١.

١١. المصدر السابق، ٦٤/١.

١٢. المصدر السابق، ١٠/١.

١٣. النجم: ٣٠.

١٤. النساء: ١٢٣.

يؤكد أنه تبقى دائماً خصائص وميزات متوارثة للأسرة الحسينية، في مقدمتها التمسك بعقيدة التوحيد الخالص، والبعد عن الشركيات، والبدع والمحدثات: مصنونة من تأثير العقائد الشيعية، فقد تشيع عدد كبير من الأسر الأرستقراطية - كما يذكر الندوي - لرغبتها في الإقطاعات التي تقطعها الأسرة الشيعية الحاكمة في الولاية الشمالية، أو بتأثير المصاهرة، وقد حفظ الله الأسرة الحسينية الطيبة من هذه المساومة.^(١٥)

ثم إنه يفسر بعض المواقف التي لا تتعارض مع الوطنية مثل موقفه عام ١٩٢٩م حين تسلم شهادة التخرج من حاكم إنجليزي للولاية السير "مالكولم هيلي" وكانت صدمة له، ولكن - كما يقول الندوي - ينبغي أن يحكم على كل شيء باعتبار المكان والزمان، ويوزن بميزان عصره وبيئته، فلم يكن ذلك معيباً في تلك البيئة وذلك العصر.^(١٦)

ومن معالم موضوعيته أنه يتحدث عن والده وزواجه الثاني من والدته السيدة خير النساء بنت السيد ضياء النبي معلم الوالد وأستاذه، وذلك بعد وفاة زوجه الأولى عام ١٩٠١م، ويذكر أن السيد ضياء النبي قد تامل عندما عرف برغبته في خطبتها مع أنه من بيت فقير، وفضله على أحد أقاربه الأغنياء الذي كان تقدم لخطبتها، وكانت هناك رؤى وبشارات حتى تم الزواج عام ١٩٠٤م، وولدت أخته الكبرى السيدة أمة العزيز عام ١٩٠٦م وإخوته الأربعة الفضلاء، كما يشير إلى سيرة جده السيد فخر الدين بن عبدالعلي الحسيني، ثم كانت ولادته عام ١٩١٤م بعد ولادة أخته الثانية أمة الله عائشة عام ١٩٠٧م، كما يرصد عهد الطفولة في "تكية"، وبعض الأحداث والشخصيات، ومنها الفيضان الهائل عام ١٩١٥م، ويعتز بشخصية خاله الشفوق السيد عبدالله، واتساقاً مع منهجه في الموضوعية والتزام الصدق من الإشارة إلى بعض الخصومات في الأسرة وهو في مرحلة الصبا والقضاء عليها بجهود والده.^(١٧)

إيجاز:

مرعاة الإيجاز والإطناب كل في موضعه، وهذا ما طبقه الندوي في كتابة السيرة من خلال صياغة ناعمة دقيقة تتحرى المعاني المقصودة دون غموض أو إبهام ودون ثرثرة غير مفيدة أو إيجاز يخل بالمعنى، ويفسر الندوي ما يراه القراء من إطالة وإطناب أحياناً بالفرق الطبيعي بين كتب التاريخ والتراجم، وكتب الحياة الشخصية، فالمؤلف في كتب التاريخ والتراجم يكون ممثلاً عن تلك الشخصيات التي يكتب عنها ومحامياً لها ومدافعاً عنها ومتقيداً بكثير من الالتزامات فيها، ويكون هو حراً طليقاً في الكتابة عن نفسه، وممثلاً لذاته، ومتحدثاً عنها، فلا يصح - إذن - أن تقاس محتويات كتب الحياة الشخصية بمقياس الاتزان والتناسب الدقيق الذي تقاس به محتويات كتب التاريخ والتراجم، فالواجب أن يسمح للمؤلف عن نفسه أن يستخدم الإيجاز أو الإطناب والإجمال أو التفصيل، حسب وجهة نظره، وحسب انطباعاته في حياته واعتباره للأهمية والخطورة لشيء دون آخر، وإلا فسوف ينعدم الفارق المطلوب بين الكتاب عن النفس والكتاب عن الغير.^(١٨)

^{١٥}. في مسيرة الحياة، ٣٤/١.

^{١٦}. المصدر السابق، ٨٨/١.

^{١٧}. في مسيرة الحياة، ٣٣/١ - ٤٢.

^{١٨}. المصدر السابق، ٢٥/١.

ويضرب مثلاً حول الإيجاز والإطناب بوفرة المادة التاريخية عن الأسرة الحسنية القطبية الكريمة التي ينتسب إليها وتعرف بشرف أصلها وتنجب نوايغ في العلم والفضل والشخصيات المرموقة، ويرى أن ذلك يكفيه مئونة الإطالة والإفاضة، ويكتفي بنبذة ويحيل على الكتب الموسعة التي تتناول تراجم أعيانها من الكبار والعظام. (١٩)

وقد ضمن الندوي سيرته الذاتية عدداً من الرسائل والوثائق التي تبادلها مع الرؤساء والملوك وغيرهم وردود بعضهم عليها، وهي تحوي تناولاً لقضايا مهمة على مستوى الهند والعالم العربي والمسلمين بصفة عامة. (٢٠)

الصورة العقلية:

يتكئ منهج الندوي على أن كتابة السيرة الذاتية مسألة مهمة للغاية، إذ تبين للقارئ ملامح الصورة العقلية للكاتب وطريقة تفكيره ومراحل التطور التي مرت بها هذه الطريقة وتلك العقلية، فضلاً عن معرفة تاريخ الإنشاء والكتابة والتأليف في حياة الكاتب، وأهم الأحداث والوقائع والحركات والدعوات في عهده، وتتبع آرائه وأفكاره ومشاهداته وانطباعاته ودعوته ومنهجه بصورة مختصرة، وعرض النقاط الأساسية الرئيسة من كتاباته ومؤلفاته وتقديم مقتطفات مهمة منها، وهي منشورة مبعثة في كثير من مقالاته ومحاضراته ومؤلفاته، التي بلغت أكثر من مائة مؤلف، ليس من اليسير أن يقف عليها من يريد الإطلاع على آرائه فيها في وقت واحد. (٢١)

وقد سجل الندوي في الجزء الثالث رسالة من أحد محبيه وهو الأستاذ سهيل أحمد - نزيل أمريكا - يعرض فيها خلاصة جيدة لتجربة حياة الندوي وعصارة فكره ودراساته، وذكر فيها ما جرى في أحد مجالس شيكاغو التي تحدث فيها الندوي وأعرب فيها عن آرائه وأفكاره، وتشتمل على عرض سليم لأفكاره وتصورات ودراساته، وقد ختم الندوي بهذه الرسالة رحلته الطويلة في القارات الثلاثة، هذه الرسالة مهمة وتتضمن وعياً بالواقع الخطير الذي يعيشه المسلمون في أتون المؤامرات الخارجية التي لا تتوقف، وهي رسالة مسهبة وفيها كثير من أفكار الندوي المهمة. (٢٢)

ما سبق يوضح منهج الندوي في كتابة السيرة الذاتية في خطوطه العريضة، ويجعل منها وثيقة حية وقوية تسجل حياة رجل نشأ في أسرة عريقة تتصل في نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وجاء أول أجدادها إلى الهند في القرن السابع الهجري.

وكانت كتابة هذه السيرة نموذجاً تحتذيها الأجيال الجديدة من الباحثين والمحبين لأمتهم الإسلامية والمدافعين عن عقيدة الإسلام، لقد كتبها الندوي وهو في ظروف طبية فرضت عليه كتابتها لتكون تذكيراً لنفسه أولاً بنعم الله التي تستوجب الحمد والشكر، والاعتبار بالحوادث والانتفاع بالدروس وتجارب الحياة، وإشراك القراء في استخراج النتائج الصحيحة من الحوادث

١٩. المصدر السابق، ١/٢٧.

٢٠. المصدر السابق، ٣/٩٨.

٢١. المصدر السابق، ١/٢٥.

٢٢. المصدر السابق، ٣/٢٧٧.

الماضية والانتفاع بها، والاعتبار من الأخطاء والعثرات فيبتعدون عنها، ومشاهدة آيات الله في الأنفس والآفاق ونعمه على عباده وخلقه فيتعرضون لها ويجربونها ويستجلبونها بالرجاء والدعاء، والسعيد من وعظ بغيره. (٢٣)

ويقول الشيخ علي الطنطاوي: إننا - يقصد المسلمين - حكمنا الهند ألف عام، وتاريخ الإسلام في الهند يعدل ربع تاريخ العالم، وخلصنا في الهند أضعاف ما خلفناه في الأندلس، وفي كل شبر من الهند دم زكي أرقناه وحضارة خيرة وشيت بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات والمعاهد والمدارس، وهناك آثار تفوق بجمالها الحمراء، وحسبكم "تاج محل". (٢٤)

خلاصة البحث

ونلخص من هذا البحث إلى أن كاتب السيرة الذاتية لا يصور نفسه فحسب، وإنما يحكم عليها ويحاول أن يتجرد من الرابطة العاطفية التي تشده بها، فيلجأ إلى أي حد يمكن أن يكون هذا الكاتب الذاتي صادقاً؟ وبعبارة أخرى، ما هي درجة الصدق في السيرة الذاتية، وهل من الممكن للصدق التام أن يتحقق فيها؟ والجواب على هذا التساؤل سهل لا يحتاج كثيراً من التدقيق. فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها من نقلها على حالها، ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية "محاولة" لا أمراً متحققاً. وقد عرض مورداً للحوائل التي تحول دون تحقق الصدق في السير الذاتية: فعد منها النسيان الطبيعي، والنسيان المتعمد، فنحن لا نذكر من عهود الطفولة إلا القليل، وبعض ما نذكره أحياناً نحاول إخفائه لأنه لا قيمة له، وما دمنا ننشئ فناً فإن عملية الاختيار هي التي تتحكم فيما نعمله، فنحذف ما نحذره ونبقي ما نبقيه، خضوعاً لتلك الحاسة الفنية فينا.

وتتجلى لنا الغاية من كتابة هذا النوع من السير أي السير الذاتية كما قال الدكتور إحسان عباس في "أن الغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين، ودعوتهم إلى المشاركة فيها، فهي متنفس طلق للفنان يقص فيها حياة جديرة بأن تستعاد وتقرأ و توضح موقف الفرد من المجتمع كما تمنحه الفرصة لإبراز مقدرة فنية قصصية إلى حد كبير، وترجحه نفسياً لأنها تستند إلى الاعتراف، فإن كان يشعر باضطهاد المجتمع له، كما شعر روسو تخفف من هذا الشعور، وإن أحس بوقوع ذنوبه وآثامه أراح ضميره بالتحدث عنها ووقع نفسه بالإعلان عن سيئاتها، ووقف منها موقف المتهم والقاضي معا.

هكذا نجد أن العلامة الشيخ أبا الحسن علي الحسيني الندوي لم يكتف عند كتابته لسيرة الذاتية على المعلومات الذاتية والأمور الأسرية فقط، بل تناول أموراً عديدة، وتطرق فيها إلى القضايا والمواضيع التي تتعلق بمجالات العلوم والمعارف والثقافة والاجتماع والسياسة والدين والعقيدة والتقاليد والأعراف والظروف والبيئات وغيرها، كما أنه قد تناول بعض الأسباب للحوادث واستخرج بعض النتائج منها.

٢٣. المصدر السابق، ٢٥/١، ٢٦.

٢٤. المصدر السابق، ٨/١.